حالا الهيبة والأنس

عند الصوفية

بقلم الأستاذ

أبو الوفا التفتازانى

مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الهيبة من الله والأنس به من أحوال الصوفية السالكين فى طريقهم إلى الله تعالى ، وهما معنيان يردان على قلب السالك من غير تعمد منه ولا اجتلاب ولا اكتساب ، شأنهما فى ذلك شأن سائر الأحوال .

ويرى الصوفية أن حالا الهيبة والأنس فوق حالى القبض والبسط ، بمعنى أنهما أرقى فى مراتب السلوك ، وفى ذلك يقول القشيرى فى رسالته : « ومن ذلك الهيبة والأنس وهما فوق القبض والبسط ، كما أن القبض فوق رتبة الخوف ، والبسط فوق منزلة الرجاء ، فالهيبة أعلى من القبض ، والأنس أتم من البسط » .

كذلك ويرى بعض الصوفية أن حال الأنس بالله تعالى أرقى من حال الشوق ، فقد ذكر أبو سعيد الخراز مانصه عن بعض الحكماء : « الأنس بالله ، جل ثناؤه ، أرق وأعذب من الشوق ، لأن المشتاق كان بينه وبين الله تعالى مسافة خفيفة لعلة شوقه ، والمستأنس أقرب من الله عز وجل » .

ويرى أبو سعيد الخراز أيضاً أن حال الأنس عند الصوفية مردود إلى ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم حين أتاه جبريل عليه السلام فى صورة رجل فسأله عن الإسلام والإيمان ، ثم سأله عن الإحسان ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فقال له صدقت ! » .

« وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر رضى الله عنه :

« اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وإنما دله النبي على قرب الله عز وجل وقيامه عليه، ومن قرب الله تعالى والأنس به تستخرج حقائق الأمور فى كل مقام »

ويقول أبو سعيد الخراز فيما يميز المستأنس بالله عن غيره : « فمن علامة المستأنس بالله تعالى وبقربه أن يكون واجدا لذكر الله عز وجل فى قلبه ، واجدا لقربه منه ، لايفقده على كل حال ، وفى كل وقت وكل موطن ، ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء ، وذلك إذا سكن قلبه نور قرب الله تعالى منه، فيه ينظر إلى الأشياء، وبه يستدل على الأشياء»

ويقتضى الأنس بالله أن يستشعر السالك للطريق الوحشة من جميع الخلق بمعنى عـــدم الركون إليهم ، والاعتماد عليهم دون الله تعالى ولذلك يرى ابن عطاء الله السكندرى أن السالك لن يتحقق بحال الأنس إلا بالانقطاع عن الخلق (لفترة معينة) فى العزلة والخلوة ، فيقول فى ذلك لمريده السالك : « لو انقطعت عن الخلق لفتح لك باب الأنس به تعالى ، ، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة ، فسمعوا من الله وأنسوا به فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار فارفض مارفضوا وهو الأنس بالخلق » .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى أيضا عن أن الأنس بالله لايحصل للسالك إلا بعد وحشته من الخلق فى حكمة من حكمه : « متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به »

وما دام الله هو الذى يفتح باب الانس به للسالك فمعنى هذا أن حال الانس يكون بمحض العناية الإلهية ، وليس لإرادة السالك مدخل فى تحققه به . واستمع إلى ابن عطاء الله مناجيا ربه ، ومبينا أن المعرفة والمحبة والانس ليست إلا بمحض فضله :

« أنت الذى أشرقت الانوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذى أزلت الاغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك ؟! وماالذى فقد من وجدك ؟! لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا ! إلهى كيف يرجى سواك وأنت ماقطعت الإحسان ؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان ؟

« يامن أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين ، ويامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين ! »

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى